

الخيمة والبيرق والحصان: قراءة في سيرة القايد نصر بن سعيد

محمد ضيف الله
المعهد الأعلى للتوثيق-جامعة منوبة

لا شك أن العودة المكثفة نسبيا للكتابات البيوغرافية خلال السنوات الماضية، بمساهمة كل من الفاعلين والباحثين على حد سواء، تعكس الحاجة الاجتماعية الأكيدة -في حدود الدائرة الوطنية على الأقل- إلى هذا الطنج من الكتابة. غير أن هذه الظاهرة يمكن النظر إليها أيضا في انسلاكلها ضمن دائرة أوسع فتحتها العولمة المظفرة وما انجر عنها من تأكيد كاسح للفردانية بقيمها وسلوكاتها وتصوراتها مقابل انكفاء قيم مغايرة كانت تبدو مقبنة إلى حد بعيد. وربما من انعكاسات العولمة أيضا أن ما يميز هذه الظاهرة أنها لم تعد حكرًا على المنتصرين الذين يسطرون التاريخ ويقدمون أنفسهم على أنهم ساروا في "اتجاهه الصحيح" الذي أفضى إلى الاستقلال السياسي ثم بناء الدولة الوطنية، وإنما انفسحت أمام غيرهم ممن كانوا على هامشه أو حتى وقفوا بدرجة أو بأخرى "ضده" من ممثلي "العهد البائد" والمستفيدين منه ومن بينهم القايد¹. والحقيقة أن هذه الفئة المخزنية تشكل مبحثا مغريا يتلاءم مع موقعها كوسيط بين المركزي والجهوي، وبين الوطني والاستعماري، وبين الحدائي والتقليدي، وبين الموروث والمكتسب. وقد سبق لنا أن لاسنا بعض تلك الجوانب من خلال مسار قايد من الرعيل الأول في العهد الاستعماري ألا وهو سعيد بن نصر²، وانتهينا إلى أن أهم ما قام به أنه أدرج نفسه في مسار طويل لعائلة مخزنية وكانت له بصماته في نحت تقاليدها، وقد حرص على أن يورث هذا الدور إلى أبنائه من بعده، فبرز من بينهم نصر بن سعيد الذي خدم قايدا لما يفوق

1- يمكن أن نذكر هنا بعض المقالات لكل من عبد الواحد المكني وعدنان منصبر وفوزي السعداوي ممن كتبوا حول هذه الفئة المخزنية.

2- انظر بحثنا الموسوم: "في مسألة العلاقة بين الأعيان والاستعمار في الجنوب: القايد سعيد بن نصر نموذجا"، ضمن أعمال الندوة الدولية الثانية عشرة حول: الجنوب التونسي من الاحتلال إلى الإستقلال، من تنظيم المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية تونس، 6-8 ماي 2004.

ربع قرن ثم توزّر في اللحظات الأخيرة من العهد الاستعماري، وهذا المسار الفريد يطرح مسألة الإمكانات التي فتحتها النظام الإستعماري أمام الأعيان المحليين حتى وإن كانوا من أصول بدوية ومن منطقة نائية مثل نفزاوة بالجنوب التونسي، فكيف أمكن له ذلك ؟ وكيف كانت علاقته مع الأهالي بالمناطق التي خدم بها؟ وكيف تفاعل مع التحولات التي شهدتها الساحة الوطنية خلال مساره الطويل؟

من الخيمة إلى المخيم :

1- بين المهّد البدوي ومقاعّد الدراسة :

يعتبر أولاد يعقوب من أهم المجموعات القبلية بمنطقة نفزاوة في القرن التاسع عشر³، وهم قبيلة مخزنية لم يمنعها موقعها الطرفي من أن تسخر سيوفها وتعبئ فرسانها لخدمة العرش الحسيني، ووقفت إلى جانبه في أوقات حرجة من القرن التاسع عشر، فاكتمست وطورت تقاليد خاصة في خدمة السلطة الحاكمة، ولم يمثل انتصاب الحماية الفرنسية بتونس قطيعة في تطور تلك التقاليد إذ نراها قد استمرت بل وتطورت بعد أن والى شق معتبر من هذه القبيلة النظام الجديد، وكان على رأس هؤلاء نصر بن عبد الصادق ونجله سعيد بن نصر، وهما على التوالي جد ووالد نصر بن سعيد، وقد احتل الأخير منهما منصب قائد على نفزاوة لما يقرب من ربع قرن (1898-1922).

هو نصر بن سعيد بن نصر بن عبد الصادق بن بوعلاق بن علي بن سلطان، أي أنه ينتمي إلى الجيل السابع في شجرة أنساب أولاد بوبكر من أولاد يعقوب، بما يدل على حداثة ماضيهم فضلا عن طراوة مجيئهم إلى نفزاوة، ذلك أن علي بن سلطان الذي لا تفصله عن حفيده نصر بن سعيد إلا أربعة أجيال قد توفي سنة 1720 بتمزرت القريبة من مطماطة⁴. وهذا يشير أيضا إلى أن بداية فرض هذه القبيلة لنفسها يتزامن تقريبا مع تأسيس الدولة الحسينية، أما قدومها إلى نفزاوة فقد كان أحدث من ذلك.

³- حول أولاد يعقوب انظر بحثنا المشار إليه أعلاه.

⁴- هذا اعتمادا على شجرة أنساب أولاد بوبكر من أولاد يعقوب الواردة في وثيقة بحوزتنا تحمل عنوان "إشهاد بالسماع" وهي بتاريخ 26 مارس 1995.

بسمي نصر بن سعيد على اسم جده نصر بن عبد الصادق على عادة أهل البادية آنذاك في تسمية النجل الأكبر⁵. وقد ولد بعد سنوات قليلة من انتصاب الحماية الفرنسية، غير أن الوثائق تختلف في تحديد سنة ميلاده، إذ ورد في أوراق ملفه المهني أنه ولد سنة 1888 دون تحديد لليوم ولا للشهر، غير أن إحالته على التقاعد رسميا سنة 1947 قد ترشّح أنه ولد سنة 1887، خاصة وأن هذا التاريخ نفسه ورد في نص ترجمته الرسمية التي نشرتها وكالة الأنباء الفرنسية عند تشكيل حكومة الطاهر بن عمار يوم 8 أوت 1954⁶، في حين أن الصحف التونسية التي أوردت نبذة عن حياته بنفس المناسبة ذكرت تاريخ سنة 1889⁷، إلا أن أيا من الوثائق الأرشيفية التي عثرنا عليها لم تذكر هذا التاريخ، وهو ما يجعلنا نستبعده. وعلى أية حال فقد ولد في فترة وقع فيها التسليم بالأمر المقضي الإستعماري، وانخرطت عائلته في ركب النظام الجديد مستعملة جانبا كبيرا من القبيلة في نفس الطريق بما فتح أمام والده خاصة مسارب جديدة للرقي.

من جهة أخرى تتفق كل الوثائق على أن مكان ولادة نصر بن سعيد هو قبلي بالجنوب التونسي. غير أنه يجب التفريق هنا بين مسميين يحملان هذه التسمية هما على التوالي: بلدة قبلي (القديمة) التي تحيط بها الواحة وسوق البياز الذي أحدثه الفرنسيون خارج الواحة والذي أصبح هو الآخر يحمل فيما بعد اسم قبلي. ومن الأكيد أن نصر بن سعيد لم يولد بالبلدة الأولى إذ لا نعتقد أن والده أقام بها في أي فترة من الفترات نظرا العداوة الصّفة المستحكمة بين سكانها من جهة وأهله من أولاد يعقوب من جهة أخرى ثم لعدم وجود مصالح له بها. أما إذا كان المقصود بأنه ولد بسوق البياز، فلا بد من الإشارة إلى أن والده كان منذ 1884 وإلى ديسمبر 1890 شيوخا على أولاد ميرة وأولاد عزيزة وأولاد بوبكر من أولاد يعقوب ولم يكن

5- تشير إلى أن اسمه غالبا ما كان يكتب بالفرنسية Naceur / ناصر على طريقة "البلدية" في النطق، خلافا لاسم نصر (بدون مد النون) الذي قد يحيل إلى أصوله البدوية. ونشير هنا إلى أن اسمه قد ورد في النعي الذي نشرته أرملته قمر بنت محمد بن الخوجة جاء بإضافة الألف واللام فضلا عن مد النون (الناصر)، انظر صحيفتي الصباح والعمل بتاريخ 15 فيفري 1973 على التوالي ص 7 وص 9.

6- QQ, TN, 1944-55, deuxième partie 1950-1955, Carton 296, Bobine 638, f. 37.

نشير إلى أن هذه الوثيقة وكل وثائق الأرشيفات الفرنسية المشار إليها في هذا البحث توجد في مصغرات فيلمية بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس.

7- انظر صحف الصباح و"لاديباش تونيزيان" (La Dépêche Tunisienne) و"لي بتي ماتان" (Le Petit Matin) الصادرة يوم 8 أوت 1954.

سوق البياز المركز الرئيسي لهم وإنما بلدة نفة، ونرجح بالتالي أن يكون آنذاك مازال قاطننا بين منظوريه بهذه البلدة التي كان فضلا عن ذلك يمتلك بواحتها النخيل والزيتاين⁸. ونعتقد أنه لم ينتقل إلى سوق البياز إلا بعد استقالته من المشيخة وتسميته باش شاوش على مخزن قبلي وبعد أن أصبح سوق البياز المركز الإداري والعسكري لنفزاوة في سبتمبر 1890 أي بعد أن ولد نصر بن سعيد. وحينئذ نعتقد أنه يصعب التسليم بأن مكان ولادته كان قبلي، خاصة إذا سلمنا بأنه ولد في فصل الربيع إذ أحيل على التقاعد في هذا الفصل بالذات من سنة 1947، ذلك أن أولاد يعقوب كانوا يرتحلون في فصلي الربيع والصيف إلى مضاربهم بشرقي المنطقة، حيث كانت تمتد مراعيهم شمال جبل طباقه (البحاير) وجنوبه كما تمتد أراضيهم الزراعية بسهلي السقي والشارب⁹، وبالتالي فإننا نرجح أن يكون قد ولد هناك بأكبر خيام القبيلة التي كان والده شيخا عليها وزعيما لها.

أما بالنسبة لعلاقته قبلي فمن الأكيد أنه قضى طفولته بها، إذ لم تمر ثلاث سنوات على مولده حتى استقال والده من المشيخة ليعين مباشرة على رأس مخزن قبلي، فاستقر بعائلته بالمركز الجديد للمنطقة، وإلى هذه الفترة من أواخر القرن التاسع عشر يعود بناء منزله المعروف إلى يوم الناس هذا، والذي يقع غير بعيد عن إدارة العمل ومكتب الشؤون الأهلية، ويجاوره من الجهة الأخرى أبناء العمومة من أولاد يعقوب الذين أعطوا اسمهم للحي الذي يقع شرقي سوق البياز. وفي هذا الحي بالذات قضى نصر بن سعيد طفولته، فكان شاهدا على التحول التدريجي لتلك القبيلة إلى حياة الاستقرار، كما عايش نمو ذلك المركز الإداري الذي أنشأه الفرنسيون وكذا صعود نجم والده والحظوة التي أصبح يتمتع بها خاصة بعد تسميته سنة 1898 قائدا على نفزاوة.

التحق نصر بن سعيد بالمدرسة الفرنسية العربية قبلي التي فتحت حديثا آنذاك والتي لم تكن تبعد عن منزله إلا بضعة أمتار، ليختلط بزملاء من أبناء الإداريين والعسكريين الفرنسيين والتجار اليهود. وكان عدد تلاميذها آنذاك محدودا جدا إذ كانت تعد سنة 1900: 36 تلميذا فقط. وفي فصولها تعلم مبادئ اللغة الفرنسية وتشرب عوالم جديدة تتجاوز حدود القبيلة.

S.H.A.T, Carton : N.S. 81, "Notice concernant les tribus de Nefzaoua", par Bechevel, en date de 1889, F. 146 verso.

وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية تحول إلى العاصمة لمواصلة تعليمه الثانوي بالمدرسة العلوية ثم بالليسي كارنو¹⁰، غير أنه لم يستكمل دراسته هناك لأسباب لم تكشفها الوثائق التي بين أيدينا. ومع ذلك نستطيع القول أن لا أحد من أبناء قبيلته أو حتى من منطقة نفزاوة استطاع آنذاك أن يحصل على مثل هذا القدر من التعليم، ويتمكن من اللغة الفرنسية التي كانت تعتبر مفتاحاً للتدرج الثابت في سلك الإدارة والحفاظ بالتالي على مكانة العائلة ودعمها. غير أن المدخل الذي اختاره الرجل كان الخدمة العسكرية على خطى جده وأبيه من قبل.

2- تحت العلم الفرنسي:

كان أولاد يعقوب يحرصون على تربية الخيل وعلى تدريب أبنائهم على ركوبها، حرصهم على المحافظة على صولتهم بالجنوب من خلال نظام "الصحبة" الذي كان يدر عليهم بعض المداخل المتأتية من تجمعات بشرية مستقرة في الغالب وغير ذات شوكة دائمة. كما كان فرسانهم يلتحقون بقوات المحلة كلما طلب منهم ذلك، ويشنون في أوقات أخرى الغارات بنفزاوة والجريد¹¹ وحتى عبر الحدود باتجاه البر الغربي¹². غير أن إرساء "السلم الفرنسي" بعد انتصاب الحماية وضع حدا لتلك الممارسات ووجه هؤلاء الفرسان لخدمة النظام الجديد، وقد لعب سعيد بن نصر في هذا الاتجاه دوراً قيادياً لأبناء عمومته خاصة بعد أن سمي على رأس مخزن قبلي. ويبدو أنه حرص على أن يسترسل أبنائه على نفس النهج في الحفاظ على التقاليد المخزنية. فكان نجله البكر نصر بن سعيد خير من جسم تلك الإستراتيجية.

تطوع نصر بن سعيد في الخدمة العسكرية عندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره، وقد عين بالصنف الثاني بتاريخ 29 مارس 1910، وفي غرة أكتوبر من نفس السنة أي بعد ستة أشهر فقط ارتقى إلى رتبة برقادي (brigadier)، مستفيداً فيما يبدو من علاقات والده مع ضباط مكتب الشؤون الأهلية بقبلي. ويتضح ذلك أكثر من خلال حصوله بعد سنة واحدة من

10- انظر جرائد الصباح ولايباش تونيزيان ولي بتي ماتان بتاريخ 8 أوت 1954.

11- انظر مثلاً: أ.و.ت، صند 21، الملف 238، و 22، وهي مراسلة من محمد المرابط إلى الوزير الأكبر خير الدين بتاريخ 26 محرم 1292 يشتمل فيها من ستة فرسان من أولاد يعقوب أغاروا بالجريد على صبايحي وافتكوا ما لديه من مال.

12- انظر: بنفس السلسلة، ص 20، ملف 233، الوثيقة 34 وهي مراسلة من عامل الجريد علي الساسي إلى محمد العزيز بوعتور بتاريخ 27 ربيع الأول 1285/ 18 جويلية 1868.

ذلك التاريخ على منحة للحاق بالمدرسة الحربية بسان سير (Saint-Cyr) بفرنسا. وبالفعل التحق بها في غرة أكتوبر 1911، وقد جاء في برقية وكالة الأنباء الفرنسية المشار إليها أعلاه أنه كان أول من دخل هذه المدرسة من التونسيين¹³. وقد استمر وجوده بها لمدة سنتين دراسيتين إذ تخرج منها ضابطا برتبة ملازم (سو ليوطنان)، وصدر قرار وزاري بذلك بتاريخ 7 أوت 1913، كما ورد في الترجمة الرسمية التي نشرتها الصحف غداة توزيعه في أوت 1954 أنه التحق بعد ذلك بمدرسة الخيالة بسومور (Saumur). وما يجدر التأكيد عليه هنا هو أنه استطاع أن يظهر آنذاك فروسيته وينميها وقد لوحظ بشأنه أنه "فارس قوي" (سبتمبر 1913) وأنه "يمتطي الحصان بقوة" (أكتوبر 1914)¹⁴، ونعتقد أنه ما كان له ذلك لو لم يكن متدربا على ركوب الخيل طبقا لتقاليد القبيلة¹⁵.

لكن إلى جانب هذا التكوين المبتين الذي عمق استعداداته السابقة، أظهر نصر بن سعيد قدراته العسكرية ميدانيا خلال مشاركته في الحرب العالمية الأولى، وقد اتفق رؤساؤه من الضباط الذين أشرفوا عليه آنذاك على الإشادة بصفاته وخصاله العسكرية، ومن بينهم العقيد كوفرشال (Couverchel) قائد الكتيبة الرابعة للصباحية التي عمل فيها منذ 16/1913، فقد لاحظ مثلا بشأنه في أكتوبر 1915 بأن له نكاه مفتوحا وأنه اكتسب الممارسة التي كانت تنقصه بعض الشيء وأنه قادر على أن يكون ضابطا استطاع. وقد جاءت هذه الشهادة على إثر قيادة الرجل لدورية ليلية حملته إلى الإقتراب من خنادق الجيش الألماني في أوت 1915 وقد تمكن خلال ذلك من الحصول على معلومات هامة كما استطاع أن يصمد بكتيبته رغم قوة القصف، فأظهر بذلك شجاعة ورباطة جأش كانا وراء ترقيته بتاريخ 23 مارس 1916 إلى رتبة ليوطنان (ملازم أول). بما يشهد على أنه كان خلال الحرب الأولى أبرز ضابط من أصل تونسي في الجيش الفرنسي.

لقد استمر وجود نصر بن سعيد على جبهات القتال بفرنسا إلى 9 جوان 1916 نقل بعدها إلى جبهة قتال خلفية لا تقل خطورة على الوجود الفرنسي بالمستعمرات هذه المرة، إذ أجبرت المقاومة الوطنية بالمغرب الأقصى الجيش الفرنسي على تعزيز صفوفه هناك، وكان من

13- QO, TN, 1944-55, deuxième partie 1950-1955, Carton 296, Bobine 638, f. 37.

14- ANT, Série E, Carton 9, dos. 8/39, doc. 7.

15- تشير في هذا الباب إلى تعلق والده بالخيال حتى أنه كان يمتلك سنة 1889 ثلاثة خيول.

16- ANT, Série E, Carton 9, s/dos. 8/39, doc. 7.

ضمن تلك التعزيزات السرية التي على رأسها اليوطنان نصر بن سعيد. وقد عمل بمنطقة تادلة لمدة تفوق السنتين والنصف، أظهر خلالها كفاءة مهنية عالية وهذا ما يمكن أن نستشفه من شهادة رئيسه الفرنسي إذ كتب عنه بتاريخ 17 نوفمبر 1917 أنه "ضابط أهلي ممتاز وذكي ومتقف جدا وحبذا لو كان كل الضباط الأهالي يشبهونه"¹⁷، وهو ما يدل على مدى ولائه للقوة الفرنسية الحامية حتى وإن كان ذلك على حساب شعب له معه قواسم مشتركة عديدة¹⁸.

ثم عاد نصر بن سعيد إلى تونس في 17 جانفي 1919 أي بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وعين للعمل بمنطقة التراب العسكري بالجنوب، بما يؤشر مرة أخرى على ثقة رؤسائه فيه إذ كانت المنطقة آنذاك تحت تأثير ذيول ثورة الجنوب.

لقد قضى الرجل عشر سنوات تحت العلم الفرنسي سواء في التدريب أو بجبهات القتال المختلفة خلال الحرب العالمية الأولى مدافعا عن فرنسا ثم عن وجودها الإستعماري، وقد جنى من ذلك عددا من الأوسمة من بينها الكروا دي فار (Croix de guerre)، وربما الأهم من ذلك أنه استطاع خلال مشواره العسكري أن يكتسب صداقات عديدة مع عدد من الضباط الفرنسيين، لكن بمجرد عودته إلى تونس أبدى رغبته للحاق بالإدارة وبالتالي مغادرة الخدمة العسكرية¹⁹. فهل كان ذلك ينطوي على شعور ما ببعثية العمل الذي قام به حتى ذلك الحين في سبيل الدولة الحامية ؟ أم استشعارا منه بأخطار الخدمة العسكرية وهو الذي عاش طويلا بجبهات القتال إن بفرنسا أو بالمغرب الأقصى ؟ قد يكون هذا وذاك، ومع ذلك فقد وظف فيما بعد تاريخه العسكري وعلاقاته مع الضباط الفرنسيين بما سمح له بقدر من حرية التصرف بعد تعيينه قائدا. ومع أنه قضى النصيب الأوفر من حياته المهنية في الإدارة فإنه لم يقطع صلاته بأوساط الضباط الفرنسيين حتى أنه سمي نائبا لرئيس الفرقة الفرنسية لمحاربي البلاد

Ibid. - 17

18- حول المقاومة الوطنية المغربية بمنطقة تادلة خلال الحرب العالمية الأولى، انظر أعمال الندوة التي نظمتها المنوبية السامية والمجلس الوطني لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير وكلية الآداب ببني ملال والتي صدرت تحت عنوان : المقاومة بجهة تادلة أزيلال 1908-1956 السياق والخصوصية، الرباط 2000.

19 - ANT, Série E, Carton 9, s/dos. 8/39, doc. 6, correspondance de Naceur Ben Saïd au Résident - 19 général en date du 26 juin 1919.

التونسية (La Légion Française des Combattants de Tunisie) عند تأسيسها في ديسمبر 201940.

القائد والوزير :

1- قائد لأكثر من ربع قرن :

ما يظهر من خلال الوثائق هو أن الرجل توسّط بالضباط الفرنسيين أنفسهم من أجل أن يدلف إلى العمل الإداري مطالبا بتسميته قائدا مثل أبيه، فقد ورد في أول مطلب قدمه بهذا الخصوص أنه "يرغب في أن يتشرف بأن يسمى على رأس قيادة إذ يمكنه أن يخدم بصفة مباشرة وبأكثر جدوى القضية الفرنسية"، كما ذكر بأنه سيعمل في صورة تسميته عاملا "من أجل ازدهار بلاده وتقوية روابط صداقتها وتعلّقها بفرنسا"²¹، وهو ما لا يمكن أن يفهم منه أي شعور وطني، خاصة وأن مثل هذا الخطاب جاء في فترة مازال الخطاب الوطني فيها محتشما.

وعلى أية حال، فقد استفاد الرجل من شهادات الضباط الفرنسيين بشأنه، فلم تمر إلا بضعة أشهر حتى صدر الإنن العلي بتسميته عاملا على قفصة وكان ذلك في فيفري 1920. وخلافا لوالده الذي بقي لما يقرب من ربع قرن على رأس نفس القيادة، فإن نصر بن سعيد عمل بست قيادات تختلف من حيث أهميتها ومن حيث المدة التي قضاها بكل منها، وقد استمر بهذا الوظيف ما يزيد عن سبعة وعشرين عاما، وذلك طبقا لما يظهر من خلال الجدول التالي:

القيادة	تاريخ التسمية	تاريخ انتهاء المهمة	المدة بالسنة والشهر
قفصة	9 فيفري 1920	28 فيفري 1921	1 س و 0 ش
مطماطة	16 أفريل 1921	30 ماي 1923	2 س و 1 ش
ماجر	30 ماي 1923	4 جانفي 1928	4 س و 7 ش

²⁰ - ANT, E9, Carton 9, s/dos 8/39, doc. 371, correspondance du chef du cabinet de l'Amiral

Estiva au SG du Gouvernement en date du 14 janv 1941 انظر كذلك :

Aleya Sghaïer, Amira, *La droite française en Tunisie entre 1934 et 1946*, Pub. de l'ISHMN, Tunis 2004, p. 198.

²¹ - ANT, Série E, Carton 9, s/dos. 8/39, doc. 6, correspondance de Naceur Ben Saïd au Résident général en date du 26 juin 1919.

بيشون جلاص	4 جانفي 1928	13 ديسمبر 1934	7 س و 0 ش
القيروان	13 ديسمبر 1934	1 سبتمبر 1941	6 س و 9 ش
صفاقس	1 سبتمبر 1941	31 ماي 1947	5 س و 9 ش
المجموع			27 س و 2 ش

إن هذا الجدول يسمح لنا بإبداء الملاحظات التالية :

- أن هناك فراغا في الحياة المهنية للقائد نصر بن سعيد استمر لمدة شهر ونصف بين 28 فيفري و16 أفريل 1921 إذ أبعد عن قيادة قفصة، ولم تقع تسميته من جديد إلا بعد تدخلات على أعلى مستوى قام بها صهره محمد بن الخوجة قائد الأعراض آنذاك²²، فسمي على رأس قيادة أقل أهمية هي مطمطة.

- أن تسميته على قيادة من التراب العسكري لم تتواصل إلا سنتين وشهرا، وقد حرص على أن ينتقل منها إلى قيادة أخرى أكثر أهمية، فسمي على رأس قيادة من درجة ثانية هي ماجر.

- أن أغلب حياته المهنية قضاها بقيادات وسط البلاد، حيث مجال عدد من القبائل التونسية الكبرى مثل ماجر والفراشيش والهمامة وجلاص والمثاليث ونفات. كما كان لبعض تلك القيادات أهمية خاصة، ونعني أساسا قيادتي القيروان وصفاقس اللتين قضى على رأسهما ما يزيد عن اثنتي عشرة سنة ونصفا.

وبالإضافة إلى ذلك نلاحظ أن القائد نصر بن سعيد احتل مكانة متميزة ضمن زملائه من القياد آنذاك حتى أنه كان الثالث ضمن خمسة قياد من الصنف الإستثنائي، ولم يكن يفوقه في مكانته سنة 1937 إلا صلاح الدين البكوش وعزيز الجلولي اللذين كانا يتوليان على التوالي قيادتي سوسة وصفاقس²³. وكان بالتالي يتفوق على قياد آخرين كانوا يصنفون في رتبة أدنى منه ومن بينهم محمد الصالح مزاوي قائد بنزرت وحسن حسني عبد الوهاب قائد نابل رغم أنهما أقدم منه في هذه الوظيفة. وهو ما يؤشر على المكانة التي كان يحظى بها في المنظومة

²²- تزوج نصر بن سعيد من قمر بنت الجنرال محمد بن الخوجة في جانفي 1921، وهو ما مكّنه من التقرب من العائلات المخزنية والبلدية بالحاضرة، كما تزوج أبناءه بعد ذلك من نفس هذه الأوساط (عائلات كريمة، بوحديبة، بلامين، البكوش).

²³- الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة أ، صندوق 206، الملف 61، وثيقة 2، قائمة اسمية بالعمال.

المخزنية، وربما كان هو نفسه مرشحا للقيام بدور سياسي بارز مشابه لما قام به زملاؤه الذين توزر عدد منهم منذ الأربعينات غير أنه أُحيل على التقاعد في سن مبكرة نسبيا، ثم صدر أمر علي مؤرخ في 5 فيفري 1948 بتسميته "عاملا شرفيا نظرا لسالف خدمته"²⁴، إذانا فيما يبدو بنهاية حياته الإدارية والسياسية، لكن ما لبث أن سمي وزيرا في الحكومة التفاوضية الثانية التي ترأسها الطاهر بن عمار في أوت 1954.

2- وزير "آخر الزمان":

شكل خطاب منديس فرانس أمام الباي في 31 جويلية 1954 منعرجا في تاريخ العلاقات بين الدولة الحامية ومحيتها، وقد كان رد الحزب الحر الدستوري الجديد سريعا وإيجابيا إذ رحب بهذا التوجه الجديد والتزم بالإنخراط فيه وإنجاحه. فتشكلت في 8 أوت 1954 حكومة تفاوضية أسندت رئاستها إلى الطاهر بن عمار وقد ضمت أربعة من القادة الدستوريين الجدد هم المنجي سليم والهادي نويرة ومحمد المصمودي والصادق المقدم إلى جانب اشتراكي واحد هو الشاذلي رحيم وأربعة من "المستقلين" كان من بينهم القايد الشرفي نصر بن سعيد²⁵. وبالمقارنة مع زملائه فقد كان الوحيد ذا الخلفية والتكوين العسكريين. فما هي الأسباب التي كانت وراء تسميته وزيرا ؟ نعتقد أن ذلك يعود إلى ما يلي :

- أنه استطاع خلال فترة مباشرته الطويلة أو حتى بعد إحالته على التقاعد أن يمتن علاقاته مع الأعيان القبليين والمحليين بمختلف مناطق البلاد وخاصة من بينهم عدد من أعضاء المجلس الكبير ومن كبار ملاكي الأراضي، بما هيأه لأن يكون ممثلا للدواخل كما سنرى، كما كان ممثلا لكبار الملاكين العقاريين حيث كان يصنف من بينهم بما كان يملكه من أراضي شاسعة بصفاقس وبوابة قبلي فضلا عن أنه كان مربيا للماشية من غنم وإبل²⁶. وبالإضافة إلى جذوره وتمثيله البدوية كانت له ارتباطاته بالأوساط "البلدية" بالحاضرة عن طريق المصاهرة. فكان تعيينه بوجه من الوجوه مغالطة لهذه الأوساط وتلك في نفس الوقت.

²⁴ ANT, E9, s/dos 8/39, doc. 535.

²⁵ Ch.-A. Julien, *Et la Tunisie devint indépendante... (1951-1957)*, Ed. J.A Paris 1985, p. 164.

²⁶ QO, TN, 1944-55, deuxième partie 1950-1955, Carton 277, Bobine 627, f. 127; voir également même série, Carton 296, Bobine 638, f. 37.

- أنه لم يتورط في فترات الشدّ مع الحركة الوطنية مثلما كان الحال بالنسبة لآخرين من زملائه إذ أحيل على التقاعد في فترة مبكرة سنة 1947، بل أنه استطاع عندما كان قائداً على صفاقس أن يترك ذكرى حسنة لدى الأوساط النقابية الوطنية التي أسست اتحاد النقابات المستقلة كما سنرى.

- أنه كان يتمتع بثقة الإقامة العامة، وفي هذا المعنى ذكر المقيم العام بوايي دو لاتور في مراسلته إلى الوزير الفرنسي للشؤون المغربية والتونسية بأنه "أظهر إزاءنا دائماً ولاء تاماً وأنه يتناثر قليلاً مع الفريق الحالي"²⁷. كما أشارت مراسلة أخرى إلى تعلقه بفرنسا وأن له أصدقاء عديدين بالجيش²⁸. وربما يتجاوز ذلك الولاء شخصه إلى عائلته، إذ كان أخوه اليوطنان عبد الصادق بن سعيد في تلك الفترة بالذات مسؤولاً عن حراسة المقيم العام ومرافقاً له في زيارته داخل البلاد²⁹.

وقد تكتمل ملامستنا لأسباب تسميته إذا تفحصنا المعلومات التي ذكرت في ترجمته التي نشرتها الصحف آنذاك. ذلك أن هدف مثل تلك الترجمة هو التسويق له لدى الرأي العام التونسي والجالية الفرنسية في نفس الوقت. وقد اخترنا ثلاث صحف تتوجه إلى قطاعات مختلفة من الرأي العام بالبلاد التونسية. فقد أوردت صحيفة الصباح الوطنية ترجمة جافة إلى حد كبير، بما قد يفهم منه أنه موقف سلبي من دخوله إلى الحكومة، والعنصر الوحيد الذي يمكن إدراجه ضمن التسويق للرجل لدى الأوساط الأهلية ما ذكر من أنه "أسس مشروع مقاومة الأمية ونشر التعليم بالعروش ومازال يرأسه"³⁰. غير أن هذا العنصر لم يذكر في

²⁷ - "Sidi Naceur Ben Saïd, ancien officier français, s'est toujours montré à notre égard d'un loyalisme parfait du type traditionnel, qui détonne un peu dans la présente équipe" QO, TN, 1944-55, deuxième partie 1950-1955; Carton 296, Bobine 638, F. 50

²⁸ - Ibid, F. 59.

²⁹ - هو الإبن الأصغر للقائد سعيد بن نصر، ولد بقبلي سنة 1921، والتحق مثل أخيه بالمدسة العسكرية بسان سير، ليتخرج منها ملازماً، ثم تزوج في ماي 1947 من صبيحة بنت رشيد المنشاري. عمل منذ 1954 وإلى سنة 1956 بالإقامة العامة. عين في جوان 1956 ليكون ضمن اللجنة التي نظرت في تأسيس الجيش التونسي الذي أعلن عن بعثه بالفعل يوم 24 من نفس الشهر. ارتقى بتاريخ 1 جويلية 1956 إلى رتبة يوزباشي (نقيب). ثم أرسل إلى الكونغو سنة 1961 وهو ما كان وراء ترفيقه بتاريخ 1 جانفي 1961 إلى رتبة بينباشي (رائد). وبعد عودته من الكونغو تسلم قيادة القاعدة العسكرية في المعونة. تورط في المحاولة الانقلابية التي كشف عنها في ديسمبر 1962، وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه في جانفي 1963.

³⁰ - الصباح، 8 أوت 1954، "تراجم أعضاء الوزارة الجديدة"، ص 4.

صحيفتي لاديباش تونيزيان ولوبتي ماتان اللتين تتوجهان إلى الرأي العام الفرنسي بتونس. وقد ركزت كلاهما على ماضيه العسكري سواء بالنسبة لتكوينه أو مشاركته في الحرب العالمية الأولى إذ ذكرت أولاهما أنه "التحق بالجبهة حيث قاتل طيلة الحرب في الصبايحية"، أما لوبتي ماتان فقد ذكرت أنه "قاتل بتألق"³¹، وهو ما يدخل ضمن التسويق للرجل لدى الجالية الفرنسية. كذلك فإن لاديباش تونيزيان القريبة من الإقامة العامة ركزت على أدائه الإداري وهو ما لم تذكره الصحيفتان الأخريان، إذ كتبت عنه أنه إداري نزيه وأنه ترك في كل مكان ذكرى حسنة لدى السكان. كما ذكرت أنه كثيراً ما كان في مستوى الوضعيات الصعبة خاصة بصفاقس خلال الإحتلال الألماني بحمايته لرعاياه وبكبح التجاوزات بعد "التحرير". ثم أنه استطاع أن يجنب الأسوأ خلال الفترات الصعبة بسبب الصراعات الاجتماعية³². لقد حرصت هذه الجريدة على إبراز نجاحه في إدارة الأزمات، بما يضمن نجاحه في فترة من المنتظر أن تكون صعبة هي الأخرى، كما أن تلك الترجمة تقدمه على أنه عنصر وفاق اجتماعي وعرقي.

أما الترجمة التي وردت في مراسلات الإقامة العامة فقد كانت مكثفة بخصوص ولائه لفرنسا، حيث ورد فيها أن حسن بلاتنه خلال الحرب الكبرى قد أكسبه تعاطف الجالية الفرنسية وخاصة لدى الجيش حيث كان له عديد الأصدقاء³³. كما ورد بنفس الترجمة أن علاقاته مع السلطات الفرنسية كانت جيدة دائماً، وأنه يبدو معارضاً لعمل الدستور الجديد³⁴. وهذه الشهادة تبرر ما ذهب إليه أحد النقابيين الدستوريين من أن فرنسا قد فرضته في وزارة الطاهر بن عمار³⁵. وبالفعل فإن الرجل بدا في تلك الفترة الإنتقالية وكأنه الحصان الذي تراهن عليه فرنسا، غير أنه لم يتمكن من الإسترسال في ما كان ينتظر منه.

لم يسبق لنصر بن سعيد أن تقلد أحد المناصب الوزارية، وهو من هذه الزاوية يفتقد إلى التجربة، وقد أسندت إليه وزارة التعمير والإسكان لكن بالنظر إلى الإطار التاريخي فهذه الوزارة الاجتماعية تعتبر حقيبة ثانوية ذلك أن المهمة الأساسية لحكومة الطاهر بن عمار

31- Le Petit Matin, 8 août 1954.

32- La dépêche tunisienne, 8 août 1954.

33- QO, TN, 1944-55, deuxième partie 1950-1955, Carton 277, Bobine 627, f. 126.

34- Ibid, f. 127.

35- انظر شهادة محمد كريم بمؤسسة التميمي بتاريخ غرة فيفري 2003.

كانت سياسية بالدرجة الأولى تتمثل في الوصول بالبلاد إلى الإستقلال الداخلي، ولم يكن بوسع الوزير بن سعيد أن يحقق إنجازات هامة إذ لم تخصص لوزارته من ميزانية 1955-1956 سوى نسبة ضئيلة جداً³⁶. ومما يدل على الصعوبات التي اعترضته أنه لم يستمر في منصبه إلا سنة وشهرا حيث رحل في التحويل الوزاري الذي أعلن عنه بتاريخ 17 سبتمبر 1955. فكان وزيرا من آخر الزمان الإستعماري.

القايد والأهالي:

1- بين القيد والمدح:

لقد فسح النظام الإستعماري للأهالي المجال للتشكي من المسؤولين المحليين والجهويين، بما يحدث نوعا من التنفيس وحتى لا ينقلب عليه ظهر المجن، فضلا عن أن ذلك يسمح له بأن ينتصب حكما بين الجميع وفوقهم، ويزيد في التصاق أولئك المسؤولين بالنظام القائم. ومن خلال الملف الإداري للقايد نصر بن سعيد سجلنا عددا من الشكاوي ضده بمختلف القيادات التي تولاها، ولا شك أنها تساعدنا على إلقاء بعض الضوء على علاقته بالأهالي من جهة والسلطة من جهة أخرى. غير أننا نكتفي من بينها بالإشارة إلى ما يلي :

1- أول شكوى رفعت ضده ولم تمر إلا بضعة أشهر على تسميته قايدا بقفصة، وقد صدرت من أحد أعيان المدينة الذي كتب إلى الكاتب العام للحكومة ومن بين ما جاء في شكواه "بينما أنا جالس بسوق قفصة مشغلا بمصالحي إذ أقبل السيد عامل قفصة مارا بالطريق وعندما بلغ نحوي سألتني عن حرفتي وصناعتي فأجبتة عنها فما راعه إلا أن شرع في ضربني المبرح واستمر على ذلك نتضرع إليه والخلايق تتأسف حتى انتهى بنفسه"³⁷. ويبدو أن القايد لم يستطع أن يبرر أو يفسر تصرفه ذلك، وكان ذلك من بين الأسباب التي جعلت السلطات توقفه عن العمل بعد سنة من تعيينه على قيادة قفصة³⁸. ولم تقع إعادته إلا بعد تدخلات على أعلى مستوى من قبل صهره محمد بن الخوجة فسمي بعد شهر ونصف على رأس قيادة مطماطة التي هي أقل أهمية من قفصة ثم أنها تقع بالتراب العسكري. وقد

36- انظر ميزانية 1955-1956 في الرائد الرسمي التونسي، غرة أبريل 1955.

37- أ.و.ت، E9، م 8، ملف فرعي 39، وث 36 وهي رسالة من محمد الأفرك بن عبد الله بن قاسم الدالي إلى الكاتب العام للحكومة بتاريخ 10 أكتوبر 1920.

38- الملف نفسه، وث 58، مكتوب وزيري لعامل قفصة بتاريخ 25 فيفري 1921.

كان ذلك درسا قاسيا بالنسبة له لم ينسه طيلة حياته المهنية حيث لم يسجل عليه تصرف مشابه بعد ذلك.

2- عدد من الشكاوي التي رفعتها ضده جمعية الأوقاف ممثلة في شخص محمد الغطاس إذ طالبه في ديسمبر 1943 بمبلغ 2936.15 فرنكا مقابل كراء دار تابعة للجمعية عن سنتي 1933-1934 عندما كان قائدا ببيشون/جلاص. ومن الملفت هنا أن هذه المطالبة جاءت بعد صمت الجمعية لمدة عشر سنوات بما قد يدل على تدخل عناصر أخرى في الأمر³⁹. وعلى أية حال فقد انتهت المسألة بعد ثلاث سنوات أخرى بتوجيه إنذار من الوزارة الكبرى إلى نصر بن سعيد طالبه "بتسليم المبلغ المذكور لنيابة الجمعية بجهتكم في ظرف خمسة عشر يوما من تاريخ اتصالكم بهذا وإلا فإنه يقع إصدار التعليمات اللازمة لحجزه من مرتبكم"⁴⁰. وهو ما يدل مرة أخرى أن السلطة المركزية لم تكن دائما حامية للمسؤولين على المستوى الجهوي.

3- الحملة الصحفية التي تعرض لها بعد أن أمر بسجن الصحافي الطاهر زروق صاحب جريدة صبرة القيروانية سنة 1937⁴¹. وقد صدرت ضده آنذاك عريضة من بعض القراوة يحتجون فيها "على السلوك المشين الذي سار عليه عاملنا ... وتصرفاته الوبيلة التي جرت على الأمة القيروانية المسكينة أشد الولايات وأفدح المصايب" وانتقدوا "أخلاقه الفظة ومعاملاته السمجة التي تدل على ضعف التفكير وجهل بطريقة الكياسة والسياسة" وانتهوا إلى المطالبة بتعويضه بقايد آخر.

وفي مقابل مثل تلك العرائض كتبت بعض العرائض المؤيدة للقائد نصر بن سعيد، ربما كان بعضها بتحريض منه شخصيا أو من المقربين منه، بالإضافة إلى أن عرائض أخرى كانت توجه أيضا إلى السلطات المركزية عند إشاعة خبر نقلته إلى منطقة أخرى، وقد سجلنا في هذا الإطار عرائض صادرة من أهالي ماجر وجلاص والقيروان وصفاقس تمتدح الرجل وتشيد بما قام به من أعمال في مناطقهم وعلى رأسها استتباب الأمن ولكن أيضا التشجيع على

39- الملف نفسه، وث 417، رسالة من محمد الغطاس إلى محمد الصالح مزالي وزير الأوقاف بتاريخ 4 ديسمبر 1943.

40- الملف نفسه، وث 429، مراسلة موجهة من الوزارة الكبرى إلى القائد نصر بن سعيد بتاريخ 27 نوفمبر 1946.

41- الملف نفسه، وث 323، رسالة من القائد نصر بن سعيد إلى الوزير الأكبر الهادي الأخوة بتاريخ 18 جوان 1937.

الفلاحة، ومن ذلك غراسة الزياتين والهندي (التين الشوكي) بعمل ماجر⁴² والزياتين أيضا بعمل جلاص⁴³، وهذه السياسة تذكرنا بما قام به والده القايد سعيد بن نصر بنفزاوة فيما يتعلق بتكثيف غراسة نخيل الدقلة، وبما قام به شخصيا بقبلي من أعمال ري وغراسة الدقلة. ولعل الصورة لا تكتمل دون تركيز خاص على علاقة الرجل بالصفاقسية عندما كان قائدا على صفاقس باعتبارها أهم قيادة تولاهها خلال مساره المهني.

2- صفاقس والنقابات:

نقل نصر بن سعيد بمثل مهمته من القيروان إلى صفاقس في غرة سبتمبر 1941، أي بعد شهرين ونيف من اعتلاء المنصف باي العرش الحسيني، وتعتبر تسميته بصفاقس ترقية بالنسبة له لما لهذه المدينة من أهمية اقتصادية وإشعاع إقليمي يمتد إلى الجنوب التونسي برمته، ولكنها تعتبر أيضا امتحانا لمدى كفاءته في الإدارة والتسيير في فترة اهتمت فيها صورة فرنسا غداة استسلامها أمام الألمان، واضطربت فيها مسالك التزود والتموين بالسلع الضرورية.

لكن لم تمر سنة على مباشرة عمله، وحتى قبيل وصول قوات المحور إلى تونس في نوفمبر 1942، حتى أصبح هدفا لموجة انتقادات عنيفة ومنظمة تواصلت من صائفة 1942 إلى نهاية تلك السنة أي إلى ما بعد نزول قوات المحور بالمدينة. وقد انتقد الصفاقسية أساسا الأداء الإداري للقايد نصر بن سعيد واتهموه بالفساد، فقد جاء في عريضة من أعيانهم وصلت إلى المقيم العام الأميرال استيفا (Esteva) بتاريخ غرة أوت 1942: "إن مدينة صفاقس في كرب عظيم وفي العذاب الأكبر من جانب عاملها نصر بن سعيد وإدارته بتمامها ... يقبلون الرشوة ولا يقضون حاجة أحد إلا بالدرهم"⁴⁴. وإذا كانت الظرفية تسمح بنمو ممارسة الارتشاء في مختلف مستويات الإدارة، فإنه من الواضح أن سلطة الإشراف لم تكن آنذاك رغبة أو قسادة على إجراء أي تحقيق في الغرض. كذلك فإن مثل هذه العريضة تعكس من جهة أخرى جانبا من الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد والمرتبطة بالحرب العالمية الثانية. وبالفعل

42- الملف نفسه، و١٨٧، عريضة من أهالي عمل ماجر بتاريخ ١٣ جانفي ١٩٢٨.

43- الملف نفسه، و١٩٤ عريضة من أهالي عمل جلاص بتاريخ ١٨ مارس ١٩٢٩ وقد ورد فيها أن القايد نصر بن سعيد جلب إلى عملهم ما يقرب من ستين ألف كوبة زيتون وزعت على الأهالي.

44- الملف نفسه، و٤٠٥، عريضة أعيان صفاقس إلى المقيم العام مسجلة بتاريخ غرة أوت ١٩٤٢.

فإن موضوع الحملة ضد القايد تحول بعيد بضعة أشهر إلى كيفية إدارته لتلك الأزمة، وقد انخرطت فيها مختلف فئات المجتمع الصفاقسي. فقد اشتكى أهالي صفاقس إلى المنصف باي "من رجلين زادا في الأزمة الحالية الإستثنائية التي نحن عليها الآن ونزلا بكلكهما على بطوننا فانعصرنا كما تعصر الليمونة فوق غدائهما، هاذان كذا الرجلان هما المكلفان بتنظيم أحوالنا ومعاشنا المراقب المدني م. شستال وعبد المطيع نصر بن سعيد عامل صفاقس"⁴⁵. وما يلفت النظر هنا هذه الكثافة في التعبير، ومن المهم أن نشير من بين ذلك إلى تصوير العلاقة بين القايد والمراقب المدني الفرنسي والمبنية على ذلك النحو من الخضوع من قبل القايد في حين كان عليه أن يجسد السلطة الوطنية التي يوجد على قمته "الباي الوطني". وقد طالب أصحاب العريضة بإحالة على التقاعد أو تكليفه "بعمل آخر يناسب معارفه كعمل مسقط رأسه مثلاً: قبلي أين ولد ابن فمي يخلص لرئيس القومية ويعيش بلبان إبله الكثيرة فهو لا يحسن حتى التكلم باللغة الدارجة إلا ما يتكلم به في جهته"⁴⁶. ومع ما يضوع من هذه العريضة من مشاعر استعلاء إزاء القايد نصر بن سعيد وأصوله البدوية وحتى من مستواه التعليمي، فإن أصحابها لم يطالبوا بإزاحته وإنما مجرد نقلته وكأن ما قام به إزاءهم لا يستحق أكثر من ذلك.

أما "العلماء" فقد توجهوا بعريضتهم إلى المنصف باي في ديسمبر 1942 رافعين "شكواهم وامتناعهم بصوت واحد من سوء تصرف عاملكم بمدينةتنا السيد نصر بن سعيد فلن نجد منه أخلاقاً طيبة ولا مقاما لائقا ولا اعتبارا للأوامر التي نعملها من أسلافكم البررة الموصية باحترام حاملها ومراعاتهم مراعاة خاصة..."⁴⁷، أي أنهم انتقدوا الرجل في عدم احترامه للحقوق المكتسبة والمتوارثة، مطالبين بتمييزهم في المعاملة خلال أزمة التموين القائمة آنذاك، فقد بينوا "ولم ينلنا من الأقمشة إلا النزر القليل الأمر الذي صيرنا نخشى دخول فصل الشتاء وأبنائنا في عراء يفتت الأكباد وحالتنا تزرى بهيئتنا الإجتماعية"⁴⁸.

وفي إطار تلك الحملة دائما ربما تعتبر العريضة التي كتبها عملة شركة صفاقس قفصة الأهم على الإطلاق، إذ أنها وضعت وجهها لوجه مع الطرف النقابي، فقد توجهوا إلى المقيم

45- الملف نفسه، وث 404، عريضة أهالي صفاقس إلى المنصف باي مسجلة بتاريخ 7 سبتمبر 1942.

46- الوثيقة نفسها.

47- الملف نفسه، وث 407، عريضة "فريق رجال العلم" إلى المنصف باي مسجلة بتاريخ 8 ديسمبر 1942.

48- الوثيقة نفسها.

العام الأميرال إستيفا مشتكين من القايد "الذي سولت له نفسه أن يهين رئيس نقابتنا ويشبعه لكما وضربا مبرحا" مدعين شكواهم بشهادة طبية⁴⁹. وصورة الحادثة أن رئيس النقابة محمد الشعري تدخل لدى السلطات المحلية من أجل الحصول على كمية من الأقمشة لفائدة العمال، ولما لم يتمكن من ذلك خاطب الخليفة بقوله بأنه "سيذهب إلى زملائه ويأتي بهم معه لإحداث تشويش يمكن لهم معه الحصول على مرغوبهم". ولما علم القايد نصر بن سعيد بذلك التهديد، دعاه للحضور لديه ولم ينكر المسؤول النقابي ما قاله أمام الخليفة، وهو ما رآه القايد مبررا لزجره "وقد زجرته فعلا حتى لا يتكرر صدور تلك التهديدات منه أو من غيره وكنت عازما على إيداعه السجن ثم عفوت عنه"⁵⁰. إن ذلك يؤشر بدون شك على الهامش الذي كان يتمتع به القايد نصر بن سعيد في عمله الإداري اليومي، كما قد يكون لهذا الاحتكاك مع المسؤول النقابي تأثيره على الموقف الذي سيتخذه فيما بعد شخصا من هذه القوة الجديدة الممثلة في الحركة النقابية.

شهدت صفاقس في نوفمبر 1944 تأسيس اتحاد النقابات المستقلة بالجنوب، في الفترة التي كان فيها نصر بن سعيد قائدا هناك، وقد أشار بعض الباحثين إلى المساعدة التي لقيها الإتحاد الوليد من السلطات المحلية بصفاقس في محاولة منها تعميق انشقاق الحركة النقابية والتصدي خاصة للشيوخ الذين سيطروا على الكنفدرالية العامة للشغل. أما الحبيب عاشور فلم يشير في مذكراته إلى هذه المسألة البتة بما في ذلك ما قد يكون قام به نصر بن سعيد لفائدة اتحاد النقابات المستقلة. وقد يفسر هذا الصمت بأنه يريد أن ينأى بنفسه عن "شبهة" التعامل مع "أعوان الإستعمار".

وإذا عدنا إلى المعطيات والمعلومات التي وردت بهذا الخصوص في الكتابات التاريخية، فإن الأستاذ مصطفى كريم يذكر أن فرحات حشاد راسل السلطات المحلية بصفاقس بما فيها القايد طالبا مقابلتها ليقدم لها مكتب النقابة، وقد جاء رد كل من المراقب المدني والقايد إيجابيا⁵¹. كما نص التقرير الأدبي للنقابات المستقلة بتاريخ جوان 1945 على "تسهيلات" تلقتها

⁴⁹ - الملف نفسه، و 406، عريضة من العاملين بشركة صفاقس قفصة إلى المنصف باي مسجلة بتاريخ 12 نوفمبر 1942.

⁵⁰ - الملف نفسه، الوثائق 402 و 406 و 408.

⁵¹ - Kraïem Mustapha, *La classe ouvrière tunisienne et la lutte de libération nationale (1939-1952)*, Imp de l'UGTT, Tunis 1980, p129.

تلك النقابات من قايد صفاقس وبهم هذا الأمر تجديد بطاقات التموين والأقمشة⁵². وفي غضون ذلك لم يذكر اسم نصر بن سعيد كما لو أن ما قام به إنما يدخل في إطار وظيفته كقائد ليس إلا. في حين يبدو أن ما قام به يدخل في إطار هامش الحركة أو المناورة الذي يتمتع به، كما قد يكون ذلك صدر منه عن قناعة شخصية، وهو ما يمكن اعتباره استثمارا للمستقبل.

لقد اعترف النقابي محمد كريم بدور القايد نصر بن سعيد، وتكمن أهمية شهادته في أنه كان يومذاك مسؤولا عن الإتحاد الجهوي للشغل بصفاقس إلى جانب الحبيب عاشور. وقد ورد في شهادته حرفيا بخصوص ذلك الدور "إحقاقا للحق قد أعاننا كثيرا، إذ كلما كانت لدينا مشكلة إلا وكان يستقبلنا ويحاول حلها، وكان واسطة بيننا وبين المراقب المدني، وباعتباره كان ضابطا في الجيش الفرنسي وله شخصيته كان يفرض إرادته على المراقب...". ويبدو بالفعل أن الرجل اكتسب تجربة في التعامل مع المسؤولين الفرنسيين الذين كان يتفوق على بعضهم -على الأقل- بماضيه في خدمة العلم الفرنسي، بل وكان له تأثير يتجاوز الإطار المحلي، وهذا ما يمكن أن نستشفه من شهادة محمد كريم الذي يقول: "وعندما تكونت النقابات المستقلة لعب القائد نصر بن سعيد دورا كبيرا إذ قابل الجنرال ماست المقيم العام وأعلمه بأن هناك جماعة تريد تكوين نقابات مستقلة عن الشيوعية فكان ذلك بالنسبة للجنرال ماست شيئا إيجابيا إذ من شأنه أن يحدد من نفوذ الحزب الشيوعي". ويضيف الشاهد في نفس الصدد "وإحقاقا للحق نصر بن سعيد ساعد على الإعراف القانوني بالنقابات المستقلة... إحقاقا للحق أعاننا في تكوين النقابات وكنا نقابله كل يوم أو يومين...⁵³. وهذه الشهادة تعترف بما لا مجال للشك فيه بالدور الذي قام به الرجل في عدة اتجاهات، سواء على مستوى محلي إزاء المراقب المدني أو مركزي مع المقيم العام من أجل الإعراف بالمركزية النقابية الوطنية وتصويرها على أنها سد ضد الحركة الشيوعية. وقد أكسبه هذا الدور تقدير النقابيين الوطنيين واحترامهم، ولم تتل من مكانته لديهم أحداث 5 أوت 1947 الدامية التي شهدتها صفاقس إذ أنها جرت بعد إزاحته عن قيادتها بنحو شهر. وربما حُسب ذلك الدور في ميزانه غداة حصول

Ben Hmida, Abdesslem, *Le syndicalisme tunisien de la Deuxième Guerre mondiale à l'autonomie interne*, Pub. de l' Université de Tunis, 1989, p. 97.

⁵³ - على منبر مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بزغوان بتاريخ غرة فيفري 2003.

البلاد على استقلالها، كما حُسِبَ لفائدته العمل الإجتماعي الذي اهتم به بعد إحالته على التقاعد.

البداوة والمدرسة: عود على بدء:

رغم أن نصر بن سعيد قد قضى فترة طويلة من حياته المهنية بالوسط الحضري، إذ خدم لأكثر من اثنتي عشرة سنة بمدينتي القيروان وصفاقس، وكان يقضي رخصه السنوية بالعاصمة إذ كان صاهر إحدى العائلات "البلدية"، فإنه لم يقطع مع جذوره البدوية خاصة بعد إحالته على التقاعد إذ توجه اهتمامه إلى الإصلاح الإجتماعي من خلال نشر التعليم ورفع الأمية في الأرياف والبوادي. لقد جاء هذا الإهتمام في فترة أصبح فيها التعليم محور الخطابات المتنافسة أو المتصارعة على الساحة الوطنية، بما في ذلك الخطاب الإستعماري من خلال مشروع لوسيان باي مدير التعليم العمومي لسنة 1949.

يبدو أن نصر بن سعيد فكر منذ سنة 1948 في تأسيس جمعية تهتم بنشر التعليم في البوادي والأرياف، فصدر قانونها الأساسي في ديسمبر من تلك السنة وظهرت بالفعل في جوان 1949 تحت اسم جمعية مقاومة الأمية ونشر التعليم بين العروش⁵⁴، وقد طرحت على نفسها تحقيق الأهداف التالية :

"أولا - نشر التعليم بأنواعه بين العروش وتوسيع نطاقه في القرى والبوادي ومقاومة الأمية.

ثانيا - القيام بدعاية واسعة النطاق في العروش والقرى ترغيبا لها في الأخذ بنصيبها في ميادين التعلم وانخراط أكبر عدد ممكن من أبنائها في المعاهد الدولية والحررة.

ثالثا - إلفات نظر الحكومة لوجوب تحسين حالة التعليم بين العروش سعيا وراء ترقية مستواها الثقافي.

⁵⁴- يقع مقرها بشارع باب البنات عدد 34 مكررا - تونس.

رابعا - السعي في تحسين حالة الكتاتيب المنتشرة بين العروش وتشجيع إحداث كتاتيب جديدة في كل فريق لتلقين الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وتوجيه النجباء إلى الإنخراط في سلك المدارس الدولية أو المدارس القرآنية التي تحدث بسعي من الجمعية⁵⁵.

كما تعهدت جمعية مقاومة الأمية ونشر التعليم بين العروش بأن تقوم "على نفقتها بتعليم من تظهر مواهبه من أبناء المحتاجين في العروش بقدر ما يمكنها ذلك، وتتبع حركة التلاميذ وطلبة العلم في مختلف درجات التعليم الابتدائي والثانوي والعالي وتمدهم بما في وسعها من وجوه المساعدة المادية والأدبية"⁵⁶.

وقد ضمت الهيئة المركزية الأولى لهذه الجمعية بعضا من أبرز الأعيان ممثلين لعدد من العروش الهامة من مختلف مناطق البلاد ومن كبار الملاكين، وهؤلاء هم : 1- المبروك بالقروي من المثاليث، 2- الطاهر جرجير من نفات، 3- محمد بن مصباح من السواسي، 4- الأزهر بن الحاج نصر من الهمامة، 5- الصادق دبش من الهمامة أيضا، 6- محرز الذهبي من جلاص، 7- محمد الأحريز من ماجر، 8- يحي الحمروني من الأعراض، 9- الطيب جفال من باجة وهو خليفة متقاعد، 10- عبد الحفيظ قدور من الكاف، 11- الأخضر بن عطية من أولاد عون، 12- الطاهر التكابري من مجاز الباب، 13- أحمد بن عليّة من جبنانة، 14- محمد الصالح بن حمودة من ماطر، 15- عمر دبش من أولاد عيار، 16- الأمين بن الحبيب من نفزاوة⁵⁷. وبدا نصر بن سعيد آنذاك وكأن ما يقوم به يندرج في قلب اهتمام الأعيان المحليين من ذوي الأصول البدوية والريفية والعاملين في ركاب النظام القائم، حتى أن الثمانية الأول من تلك الهيئة هم أعضاء في المجلس الكبير، والتاسع خليفة متقاعد.

وعلى أية حال امتد عمل هذه الجمعية داخل البلاد بتسهيلات من السلطات الإدارية، وهذا ما يمكن أن نتبينه من خلال المنشور الذي وجهه محمد ثابت قايد المهدية إلى المسؤولين المحليين العائدين إليه بالنظر يدعوه فيها لتكوين هيئات فرعية "ترجع بالنظر إلى جمعية

55- لائحة قانون أساسي، جمعية مركزية ذات فروع بجميع نواحي الإيالة لمقاومة الأمية ونشر التعليم في العروش،

مطبعة النهضة، تونس، ديسمبر 1948، الفصل 1.

56- المصدر نفسه، الفصل 2.

57- أ.و.ت، E509، الملف 576، الوثيقتان 4 و7.

مركزية بالحاضرة تعمل تحت إشراف الحضرة العلية دام لها العز والبقاء وسعادة جناب العميد مسيو جان مونس المقيم العام للجمهورية الفرنسية بالمملكة التونسية". وقد تشكلت مثل تلك الهيئات بالنسبة لقيادة المهديّة مثلاً بكل من قصور الساف والجم وسيدي علوان⁵⁸.

من جهة أخرى، ومثلما نصّ عليه الفصل الرابع من قانونها الأساسي قامت الجمعية بجمع التبرعات من الأهالي، كما حصل رئيسها من الجهات الرسمية على بعض الإعانات، وهو ما ساعد على بناء بعض المدارس بالمناطق الداخلية للبلاد. وبذلك بدا نصر بن سعيد بعد خمس سنوات من انطلاق مشروعه لنشر التعليم ورفع الأمية وكأنه التجأ أخيراً إلى "العصبية" البدوية.

الخاتمة:

يعتبر نصر بن سعيد من أهم من برز من أعيان البدو في العهد لإستعماري دون أن يكون ذلك بفضل عصبية بدوية وإنما بفضل المدرسة التي فتحت أمامه باب الخدمة العسكرية فوجد نفسه خلال الحرب العالمية الأولى يقاتل من أجل البيرق الفرنسي، ودلف بعد ذلك إلى الإدارة المخزنية منتقلاً بين ست قيادات بجنوب البلاد ووسطها أهمها القيروان ثم صفاقس. وقد اختار بعد تجربة طويلة في الخدمة أن يمد أيادي بيضاء باتجاه الحركة النقابية الوطنية ثم باتجاه المناطق الداخلية من خلال مشروع نشر التعليم ورفع الأمية، وهكذا عندما كانت شمس الإستعمار تتجه نحو المغرب بدا الرجل وكأنه يذكي عصبية بدوية تعوّضه أمجاداً ونياشين⁵⁹ وعلاقات بناها في مخيمات العسكر الفرنسي وبين "بلدية" الحاضرة. وقد مكّنه ذلك بالفعل من أن يتجنب ثارات العهد الجديد، وأكثر من ذلك سُنحت الفرصة أمام عائلته لتسترسل في خدمة الدولة الوطنية من خلال أخيه اليوطنان عبد الصادق بن سعيد الذي كان أسمى ضابط أعدم إثر اكتشاف المحاولة الانقلابية لسنة 1962.

58- أ.و.ت، الملف نفسه، الوثائق 13 و14 و15 و16 و18.

59- من بين الأوسمة التي حصل عليها نصر بن سعيد نذكر : وسام الإستحقاق الفلاحي (16 جانفي 1933)، الليجيون دونار (18 أوت 1935)، نيشان افتخار (1920)، الكروا دي قار (Croix de guerre)، السعفات الأكاديمية (Palmes académiques) بتاريخ سبتمبر 1937. انظر أ.و.ت، E9، م 8، ملف فرعي 39، و 375. كما صدر أمر علي بتاريخ 5 فيفري 1948 بتسميته عاملاً شرفياً اعتباراً من غرة جويلية 1947. انظر أ.و.ت، الملف نفسه، و 535.

